حدود وارتباط السرديات والقوة في العلاقات الدولية

د. علي جلال معوض*

التوثيق والإحالة: علي جلال معوض، حدود وارتباط السرديات والقوة في العلاقات الدولية، في: خالد حنفي علي (محرر) السردية السياسية، ملحق اتجاهات نظرية في تحليل السياسة الدولية، مجلة السياسة الدولية ، المجلد 54، عدد 216، إبريل 2019، ص ص 9-14

تمهيد

تقدم السرديات-كنمط خاص للخطاب- قالبا مثاليا للتأثير الاتصالي الفكري، إذ تتجسد فيها بحكم طبيعتها وتكوينها السمات الغالبة على نمط التواصل الاستراتيجي السائد في الممارسات الدولية. ولا يقتصر استخدام الآليات السرديات على الدول الصغيرة أو الفواعل الضعيفة لتعويض محدودية قدراتها الصلبة، إذ توظف القوى الكبرى هذه الآليات بشكل مستمر، مع تمتع هذه القوى وسردياتها بأهمية خاصة بالنظر إلى تأثيرها في إقرار صورة معينة للنظام الدولي ككل وقضاياه الأساسية، أو مراجعة هذه الصورة، على نحو ما ظهر في سرديات الحرب الباردة ثم النظام العالمي الجديد والحرب على الإرهاب وغيرها[1]. ويذهب جوزيف ناي إلى ابعد من ذلك بتأكيده أن حقبة عصر المعلومات الحالية تشهد إعادة تعريف السياسة والقوة ذاتها لتصبح بالأساس صراعاً على الروايات والسرديات، و"من هو الفاعل الذي تفوز قصته"، وليس فقط من يحقق الانتصار والتفوق عسكريا واقتصاديا، وذلك في إطار انتشار القوة والتنافس على المصداقية بين مختلف الفاعلين من الدول وغير الدول[2].

ورغم ذيوع استخدام مفهوم السرديات في أدبيات تحليل السياسة الخارجية والعلاقات الدولية، إلا أن التوافق حول أبعاده وكيفية توظيفه لم يتحقق بعد بشكل كامل[3]. لا يمنع ذلك إمكانية تمييز مستويات رئيسية لحضور المفهوم وارتباطه بالقوة في مجال العلاقات الدولية، ومحددات فاعليته وتأثيره، وهو ما يمكن استعراضه في فيما يلي:

أولا: سرديات القوة المفاهيمية والنظرية في العلاقات الدولية:

يمكن اعتبار نظريات العلاقات الدولية ومدارسها الكبرى كالواقعية والليبرالية والبنائية وغيرها هي ذاتها تمثل سرديات "مفاهيمية أو نظرية" [4] حول الواقع الدولي وفواعله ومحركاته وتاريخ تفاعلاته وحاضرها

---

* مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

[1] Lawrence Freedman, 'The possibilities and limits of strategic narratives', In: Beatrice de Graaf, et al.(eds.), *Strategic narratives, public opinion and war. Winning domestic support for the Afghan War* (New York: Routledge, 2016), 20; Alister Miskimmon et al., "Great power politics and strategic narratives of war." In: Beatrice de Graaf et al (eds.) *Op.cit.*,.65-66.

[2] Joseph S. Nye, *The Future of Power* (New York: PublicAffairs, 2011), 19,104.

[3] Lawrence Freedman, "The Possibilities..",Op.cit, 16-17

[4] وفقا لبعض التحليلات يمكن التعامل مع مختلف النظريات والمفاهيم الاجتماعية التي يقدمها الباحثون باعتبارها هي ذاتها أقرب إلى "سرديات مفاهيمية واعية وعمدية، تؤطر المشكلة المطلوب معالجتها وأطرافها الأساسية وسياق تحليلها . Conceptual narratives " M.Patterson and K.R.Monroe, 'Narrative in Political Science', *Annual Review of Political. Sciience 1*, no.1 (1998): 324-326.

ومستقبلها. كما أن مفاهيم العلاقات الدولية واستعاراتها ذات الصلة بتفاعلات القوة مثل توازن القوة، وتحولها أو انتقالها، وانتشار القوة وغيرها تستبطن سرديات تقدم منظورات مختلفة للواقع الدولي وتطوره: فسرديات التوازن تركز على حبكة النجاح أو الإخفاق في تحقيق التوازن في مواجهة قوة مهيمنة أو ساعية للهيمنة، وهو ما قد يتم بآليات الموازنة الصلبة العسكرية أو الموازنة الناعمة الاقتصادية والدبلوماسية والمؤسسية والأيديولوجية الفكرية بما يقلل احتمالات المواجهة العسكرية. بينما سرديات التحول وحروب الهيمنة تركز على ديناميات التنافس الصراعي على القيادة والهيمنة على ضوء سعي قوى جديدة للصعود في مقابل مقاومة القوى التقليدية المتراجعة، وكيفية حسم هذا الصراع لصالح أحد الأطراف أو استيعابه بشكل يكفل الصعود السلمي أو خلق سردية للتعاون المشترك[1]. وفي المقابل، فإن سرديات الانتشار تفتقر لهذا الطابع من التحديد والانتظام وتتسم بدرجة أعلى من التعقيد والفوضى وغياب اليقين على ضوء انتشار القوة بين الفاعلين من الدول وغير الدول، والقضايا التقليدية والجديدة، بشكل يغير من طبيعة النظام الدولي ومستوياته وفرص استقراره، وصولا إلى عالم بلا قيادة، وحيث لن تأخذ التهديدات شكل الحروب بين القوى الكبرى بقدر تصاعد انتشار الخلافات حول قضايا جيوسياسية ونقدية وتجارية وبيئية، مع زيادة وتيرة إثارة الصراعات والمشكلات والأزمات، وانخفاض فرص المعالجة التعاونية لها[2].

وبالمثل، يمكن تحليل مفاهيم أدوات القوة واستعاراتها باعتبارها تطرح وتكرس سرديات متكاملة حول فواعل بعينهم يمارسون أدوارا محددة في سياق مهام إيجابية أو حتى رسالية الطابع (كما في مفاهيم القوة المدنية والمعيارية والأخلاقية، والقوة الناعمة والذكية ونحوها)، أو سرديات الفاعلين الأشرار الساعين لتحقيق مصالح ذاتية أنانية والمهددين للقيم الليبرالية الغربية عبرآليات تلاعبية (على نحو ما يظهر في مفهوم القوة الحادة Sharp power مثلا). كما تترسخ سرديات مماثلة في إطار تصنيفات الدول حسب قوتها وتوجهاتها بين قوى عظمى ومتوسطة وصغيرة، وقوى صاعدة أو ناشئة، وقوى راضية وأخرى متحدية وغيرها من التصنيفات. فسردية القوى العظمى والكبرى مثلا تقوم على حبكة المكانة الاستثنائية ومسؤولية القيادة وأعبائها حيث تولي أدوار القيادة المستقلة والمسؤولة، والانخراط في مدى أوسع من الصراعات والتحالفات بما يتجاوز جوار الدولة ومصالحها المباشرة، وتوقع انتصارها في الصراعات والقضايا التي تتدخل فيها وعدم انسحابها بشكل يتخلى عن حلفائها حتى في حالة ظهور تعثر حسم الصراعات أو ضعف هؤلاء الحلفاء. وقد رصدت العديد من الدراسات كيف تساهم مثل هذه المفاهيم والتصنيفات وما تطرحه من سرديات في إضفاء الشرعية على ممارسات معينة ومضاعفة قوة بعض الفاعلين في حالات معينة، وتقييد خياراتهم أو حتى توريطهم في أحيان أخرى[3].

ثانيا: التوظيف الواقعي: السرديات الاستراتيجية ومستوياتها:

ارتبط توسيع نطاق تناول السرديات في العلاقات الدولية بطرح مفهوم "السرديات الاستراتيجية strategic narratives" الذي صكه عميد الدراسات الاستراتيجية البريطانية "لورانس فريدمان" L.Freedman عام

[1] A.Miskimmon et al., 'Great power politics",Op.cit, 65-70.

[2] Randall L.Schweller, "The Age of Entropy: Why the new world order won't be orderly?", *Foreign Affairs,* June 2014, https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2014-06-16/age-entropy

[3] A.Miskimmon et al., 'Great power politics ..",Op.cit, 70-71

2006 في دراسته حول "تحول الشؤون الاستراتيجية" تأكيدا لتزايد أهمية هذه السرديات وتوظيفها بشكل عمدي وكمكون أساسي في صنع القرارات والاستراتيجيات، في إطار تحول طبيعة الحروب والصراعات من الطابع التقليدي بين جيوش الدول إلى حروب هجينة تفرض إدماج المجتمع المدني –لدى الفاعل نفسه وحلفائه وكذلك لدى خصومه وأعدائه- في المواجهة جنبا إلى جنب مع المؤسسات العسكرية، وهو ما يقتضي زيادة مراعاة قيم المجتمع وتأطير التدخلات والمواجهات العسكرية في إطار سرديات استراتيجية تحدد أهدافها وغاياتها وأنماط السلوك والسياسات الملائمة، مع زيادة مراعاة اتساق الممارسات الفعلية مع هذه السرديات[1].

وقد اتسع نطاق استخدام السرديات الاستراتيجية لتحليل مختلف أنماط القضايا والتفاعلات الدولية سواء العسكرية أو السياسية والاقتصادية أو حتى البيئية وغيرها. وارتبط انتشار استخدام مفهوم السرديات الاستراتيجية بشكل أساسي بجهود مجموعة من الباحثين في مجال السياسة والإعلام والاتصال في مقدمتهم Miskimmon و O'Loughlin و Roselle ممن سعوا لتطوير أطر نظرية متكاملة لتحليل السرديات، والتمييز بين مراحل تكوينها ثم عرضها ونشرها ثم استقبالها، وتقديم تصنيف لأنماط السرديات في العلاقات الدولية ومستوياتها بين سرديات هوية وأخرى للقضايا والسياسات وثالثة للنظام الدولي، مع إمكانية إضافة مستوى المناطق والنظم الإقليمية على النحو التالي[2]:

1- **سرديات الهوية (القومية) identity/national narratives :** تحدد قصة الدولة أو الأمة أوالفواعل وقيمها وأهدافها وخبراتها وماضيها، ومستقبلها. ويظهر ذلك مثلا في سرديات تصوير الولايات المتحدة ذاتها كدولة محبة تاريخيا للسلام وملتزمة بقيم الحرية والديموقراطية وذات مسؤولية في قيادة النظام الدولي، كسرديات سائدة في السياسة الأمريكية وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية مع تنوعات في هذا الصدد بين التقاليد الأمريكية المختلفة. وكذلك السرديات الأوروبية حول عناصر الهوية والمصالح والقيم المشتركة المعززة للتكامل والقوة المعيارية الأوروبية (وذلك رغم تأثيرات أزمات الاتحاد في تصاعد السرديات السلبية المضادة). وبالمثل، تؤكد سرديات الهوية الروسية على المكانة التاريخية للدولة كقوة عظمى، متميزة بالتفوق الأخلاقي القيمي الأرثوذكسي، وساعية لاستعادة عناصر قوتها، وللحفاظ على مبادئ السيادة والاستقرار في مواجهة الانفرادية الأمريكية والتبعية الأوروبية المضرة بالنظام الدولي، وموازنة التدخلات الغربية المثيرة للفوضى. كذلك تقوم سردية "الحلم الصيني China dream" على تأكيد دور محوري إيجابي للحزب الشيوعي الصين في تحقيق نهضة الصين، ومخاطبة الصينيين في الداخل وفي تايوان وفي الشتات كأصحاب قيم وثقافة وعظمة تاريخية مشتركة، وإبراز تأثيرات النمو الاقتصادي ونمو القدرات العسكرية الصينية في استعادة قوة الصين ومكانتها التاريخية وصعودها سلميا مع تأمينها في مواجهة التهديدات المختلفة الداخلية والخارجية، وفتح المجال أمام دول الجنوب والدول النامية للمشاركة في إدراك هذا الحلم الصيني والمشاركة

[1] Lawrence Freedman, *The transformation of strategic affairs. Adelphi Paper 379,* (London: IISS/Routledge,2006).

[2] لمراجعة تراكم جهود الباحثين والمستويات، انظر : A.Miskimmon et al.(eds.) *Forging the World. Strategic Narratives and International Relations* , Op.cit

في مشروعات ومبادرات كطرق الحرير الجديد وغيرها كآلية لتغيير النظام العالمي[1]. وعلى المستوى الإقليمي يمكن الإشارة إلى سرديات تصفير المشكلات وتحقيق الأمن المشترك وتعظيم التعاون الإقليمي ثم العثمانية الجديدة في السياق التركي، وكذلك السرديات الإيرانية في مزجها بين الأبعاد التاريخية الإمبراطورية الفارسية والمذهبية الشيعية والثورية المناهضة المقاومة للاستكبار العالمي والإنسانية المناصرة للمستضعفين).

وتكشف الدراسات النقدية عن تباينات وخصوصيات في عمليات تكوين وأبعاد سرديات الهوية من فاعل لآخر مع وجود قواسم مشتركة تظهرها مثلا التحليلات الجيوسياسية النقدية لدى القوى الكبرى والمتوسطة خاصة مثل نزعات تأكيد التفرد والاستثنائية exceptionalism والعظمة grandeur وما قد يترتب على ذلك من مهمات مصيرية أو قدرية أو أدوار رسالية معينة للدولة (سواء انطلاقا من استحضار خبرات العظمة التاريخية أو خصوصية الموقع الجغرافي أو مركزية الدولة أو انتمائها لدوائر جغرافية وحضارية متعددة)، والميل لادعاء تأثيرات حتمية معينة للمحددات الثقافية والجغرافية على هوية الدولة وسياساتها، واستحضار مخاطر وتهديدات معينة كتهديدات وجودية لأمن الدولة[2]. ويغلب توظيف هذه الأبعاد الهوياتية لتنشيط أدوار الدولة الخارجية وتفعيل وإضفاء الشرعية على توظيف مختلف أدوات قوتها. إلا أن ذات الأبعاد قد توظف لتبرير الحياد أو الانعزال والتركيز على بناء قدرات الدولة الداخلية وتعزيز دورها كنموذج (على نحو ما يظهر مثلا في مقولات العزلة المجيدة splendid isolation البريطانية، وتيار الانعزالية الأمريكية، والوحدة القيمة والقيمية precious loneliness التركية)، أو تبني طابع براجماتي في سياسات الدولة وتوجهاتها وإعطاء الأولوية لحماية مصالحها ومراجعة أعبائها والتزاماتها (مثل جميع سرديات "الدولة أولا") وهو ما يرتبط عادة بتزايد تعقيد السياقات المحيطة بالدولة أو طابعها الصراعي بشكل يفوق قدرة الدولة على معالجتها مع السعي لإضفاء طابع قيمي على (مخاوف) إخفاق السياسة الخارجية. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى سردية ترامب التي تمزج بين أبعاد انعزالية وأخرى براجماتية مرتبطة بمنطق الأعمال في إطار حبكة استعادة العظمة الأمريكية بالمعنى المادي الاقتصادي بشكل أساسي، وفي إطار رفض إهدار القدرات الأمريكية في مهام قيادة العالم ونشر القيم والتشكيك في جدوى المؤسسات والاتفاقيات الدولية التجارية والاقتصادية والأمنية، والدفاع عن تبني سياسات حمائية وانفرادية وفقا للمصالح الأمريكية[3].

---

[1] R.Hinck et al., 'Geopolitical Dimensions of "The China Dream": Exploring Strategic Narratives of the Chinese Communist Party', *China Media Research 14*, no. 3 (2018): pp. 99–113, O.Schmitt, 'When are strategic narratives effective? The shaping of political discourse through the interaction between political myths and strategic narratives', *Contemporary Security Policy* 39, no.4 (2018), 496-500.

[2] Klaus Dodds et al., "Introduction: Geopolitics and its critics", In: Klaus Dodds et al.(eds.), *The Ashgate research companion to critical geopolitics* (Farnham: Ashgate, 2013),12.

[3] Jason A.Edwards "Make America Great Again: Donald Trump and Redefining the U.S. Role in the World." *Communication Quarterly* 66, no. 2 (2018),176–95.

2-سرديات النظام الدولي International System narratives : تحدد كيفية هيكلة العالم وطبيعة النظام الدولي، والفاعلين الأساسيين فيه، والتفاعلات الأساسية الصراعية والتعاونية القائمة والمحتملة. ومقارنة بالمستويات الأخرى المفتوحة بشكل أكبر للمشاركة والتأثير لمختلف القوى والفاعلين، تبرز أهمية محورية للقوى العظمى والكبرى في تطوير السرديات السائدة على هذا المستوى أو كأطراف أساسية لها، مع تداخل سرديات القوى الكبرى حول هوياتها مع سردياتها للقضايا وسياسات الصراع والتعاون، مع السرديات الأكبر حول النظام الدولي وطبيعته، وهو ما يظهر مثلا في روايات مثل الحرب الباردة، والحرب على الإرهاب، ورفض الأحادية القطبية، والصعود الصيني، وغيرها.. فرغم أن سردية الحرب على الإرهاب أقرب إلى سرديات القضايا، إلا أن تبنيها في مرحلة ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 من قبل الولايات المتحدة كقوة عظمى جعل تأثيراتها ممتدة بشكل اقرب إلى سرديات النظام الدولي، حيث تأكيد الحق الأمريكي في الاستخدام الانفرادي والاستباقي للقوة، وتحديد الصواب والخطأ مع إنكار ذلك على الفاعلين الآخرين، والتصنيف الثنائي للعالم بين قوى مع الولايات المتحدة في الحرب ضد الإرهاب وأخرى مارقة داعمة له. ورغم محاولة إدارة أوباما تطوير سرديات لنظام عالمي أكثر تعددية في إطار قيادة أمريكية تعاونية، ثم مناداة ترامب بسياسات أكثر واقعية وبراجماتية وأقل تدخلية وتحملا للأعباء والمسؤوليات الدولية لتحقيق المصالح الأمريكية الاقتصادية بالأساس، إلا أن سردية الحرب ضد الإرهاب استمرت قائمة كسردية أساسية في العديد من المناطق (وفي قلبها الشرق الأوسط) مع تعدد واستمرار توظيفاتها من قبل الولايات المتحدة والقوى الكبرى والإقليمية المختلفة [1].

وتقدم سردية –أو سرديات- الصعود الصيني نموذجا آخر لسرديات النظام العالمي انطلاقا من التركيز على التنافس الصيني الأمريكي على ضوء مؤشرات تنامي القدرات الصينية وتنامي نفوذها في مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية والتقنية والدبلوماسية والثقافية بشكل يهدد الانفراد الأمريكي بقيادة النظام العالمي. وتتنوع التطورات المحتملة في هذا السياق بين تصورات صراعية لتحول القوة في إطار حروب الهيمنة، أو تقديم مسارات بديلة للصعود السلمي للصين بالتركيز على تأثيرات تنامي الروابط الاقتصادية والمؤسسية بين الصين والولايات المتحدة في تقليل فرص الصدام. وفي المقابل، هناك اتجاهات تشكك ابتداء في مدى استحقاق سردية الصعود الصيني احتلال مكانة مركزية كسردية للنظام العالمي، وتحديد نطاقها بشكل أساسي على مستوى إقليمي سواء في آسيا (سرديات آسيا للأسيويين مع تقليل تدخلات الأطراف الخارجية)، أو علاقات منطقة آسيا –المحيط الهادي بشكل أساسي، مع الإشارة إلى تعقيد شبكات العلاقات وتطورات مؤشرات القوة لمختلف دول المنطقة. وثمة اتجاهات أخرى توسيع نطاق السردية لتشمل صعود قوى وأطراف متعددة أخرى كالهند واليابان غيرها بما يجعل النظام الإقليمي (والدولي) أقرب للتعددية وانتشار القوة دول هيمنة أحد الأقطاب أو تنافس قطبي ثنائي، أو طرح سردية التدفق العالمي للقوة من الغرب إلى الشرق Global flux مع صعود قوى آسيا متعددة في مقابل أزمات القوى الغربية وتراجعها النسبي[2]. وبطبيعة الحال، فإن ثمة تباينات في مدى انتشار هذه السرديات في دول المنطقة والعالم المختلفة وفقا لمحددات متنوعة قيمية ومصلحية، مع تأثير كل من هذه السرديات في إضفاء أو نزع الشرعية على الخيارات الاستراتيجية لمختلف الأطراف.

---

[1] A.Miskimmon et al.,"Great power politics ..",Op.cit, 69–70

[2] Xenia Wickett, John Nilsson-Wright, and Tim Summers, *The Asia-Pacific Power Balance: Beyond the US-China Narrative,* (London: The Royal Institute of International Affairs, Chatam House, 2015).; Ce Liang, 'The rise of China as a constructed narrative: Southeast Asia's response to Asia's power shift', *The Pacific Review 31*, no. 3 (2017): 279–297.

3-سرديات المناطق والنظم الإقليمية Regions and regional systems narratives : يمكن اعتبارها نمطا فرعيا للسرديات الدولية بالتركيز على مناطق ونظم إقليمية بعينها (مثل سرديات ما بعد الربيع العربي في منطقة الشرق الأوسط بين سرديات حق الشعوب في التحرر ولحظة التحول التاريخي لاستعادة الفاعلية الحضارية للمنطقة مقابل سرديات الحفاظ على الدول القومية واستقرارها وأمنها ومواجهة الفوضى والإرهاب وغيرها). وقد طرح ألكسندر مورفي تمييزا بين عدة أنماط لما يصفه بالسرديات الإقليمية الكبرى Grand regional narratives أولها سرديات وسم مناطق أو أقاليم جغرافية معينة سواء من قبل أطرافها أو فاعلين خارجيين (مثل سرديات وسم منطقة جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا أو الشرق الأوسط الكبير بسمات كالعنف والتطرف والإرهاب وغياب الديموقراطية والفوضى بما يبرر سياسات تدخلية مختلفة للقوى الكبرى أو حتى القوى الإقليمية سواء تحت مبررات نشر الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان أو تحقيق الاستقرار). وهناك سرديات الربط بين أقاليم ومناطق معينة لإضفاء شرعية على سياسات معينة سواء في إطار تأكيد تداخل المصالح فيما بينها (مثل الربط بين شمال أفريقيا وأوروبا في إطار الدائرة المتوسطية أو الجوار الأوروبي على نحو يبرر السياسات التدخلية الأوروبية)، أو المضاهاة بين مناطق وأقاليم بعينها لإضفاء شرعية على سياسات معينة (كتشبيه تجربة الاتحاد الأوروبي بخبرة الولايات المتحدة الأمريكية في بداياتها من حيث غياب السلطة المركزية ومشكلات الاقتصاد والديون للولايات بما يبرر مواصلة دفع مسار التكامل والتعامل مع الأزمات باعتبارها عقبات متوقعة في مسار ينتهي بتكوين دولة واحدة أو اتحاد فدرالي). وثمة نمط آخر يتداخل مع سرديات النظام الدولي والعالمي، وهو سرديات تصنيف الأقاليم أو تقسيم العالم إلى أقاليم متقابلة على نحو ما يظهر في سرديات صدام الحضارات، وسرديات التمييز بين العالم الأول والثاني والثالث قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، والتمييز بين الشمال والجنوب، ونطاقات السلام في مقابل نطاقات الفوضى والصراع[1]. ويمكن إضافة نمط سرديات الإقليمية الجديدة القائمة على تعزيز أطر التعاون والحضور الدولي بين قوى إقليمية غير متقاربة جغرافيا بالضرورة ولا تسعى للاندماج السياسي (مثل سرديات مجموعات كالبريكس وغيرها المؤكدة على أولوية مدخل التعاون الاقتصادي لتعزيز التقارب في مختلف المجالات الأخرى، وتحقيق المصالح المشتركة في إطار احترام السيادة، والتطلع لنظام عالمي جديد متعدد الأطراف ومعبر عن التعدد الثقافي والحضاري ، وتخفيف التخوف من القوى الصاعدة إقليميا وعالميا ، وتعزيز نفوذ هذه القوى من خلال التعاون بينها..).. ولا تخلو جميع هذه السرديات الإقليمية من إشكاليات التعميم وعدم الدقة لكنها تتسم في كثير من الأحيان بالانتشار والتأثير والقابلية للتوظيف لإضفاء الشرعية على ممارسات بعينها للقوة.

4-سرديات القضايا والسياسات Issue/Policy Narratives : تركز على قضايا معينة مثل سرديات حظر التسلح أو الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، أو مكافحة الإرهاب أو دعم المقاومة وحركات التحرر، أو حقوق الإنسان أو مسؤولية الحماية واستدعاء التدخل الخارجي أو مقاومته، أو الحوكمة الدولية أو التنمية المستدامة، أو تبني سياسات اقتصادية حمائية أو تحريرية، أو قضايا البيئة والتغير المناخي وغيرها. وتضفي هذه السرديات الشرعية الداخليةوالخارجية من خلال تعريف القضايا والمشكلات، وتحديدالفاعلين الأساسيين، وتبرز الحاجة لسياسات معينة، ولماذا هي مرغوبة(من الناحية القيمية) وضرورية (من الناحية السببية الرشيدة ووفقا لمنطق

[1] Alexander B. Murphy, 'Advancing geographical understanding: Why engaging grand regional narratives matters', *Dialogues in Human Geography 3,* no. 2 (2013): 131–149.

تسلسل السردية)، وكيف يمكن تنفيذها أو إنجازها بنجاح.. ومن ذلك مثلا السرديات الروسية لتبرير التدخل في الازمة الأوكرانية وضم القرم عام 2014 المنطلقة من تأكيد الأصول الروسية للإقليم تاريخيا وثقافيا وإثنيا، ومسؤولية الحماية في مواجهة تهديدات الحكومة الجديدة وميليشياتها وعدم شرعيتها، ومطالب جماعات الإقليم وممثليه بالتدخل الروسي، وانضمامه الاختياري لروسيا في إطار حقه في تقرير المصير عبر الاستفتاء، بما يمكن اعتباره سردية نموذجية لتبرير التدخل وضم أقاليم مجاورة بمزيج من القوى الصلبة والناعمة في إطار ما يعرف بالحروب الهجينة hybrid warfare أو غير الخطية non-linear wars [1]، على نحو يتكرر بشكل مماثل في خطابات مختلف القوى الكبرى والإقليمية لتبرير أدوارها التدخلية[2].

ثالثا: محددات فاعلية السرديات واستمراريتها

تتعدد محددات فاعلية السردية جاذبيتها وقدرتها على الانتشار والتأثير، وعوامل استمرارها وسيادتها كسرديات رئيسية أو تغيرها وصعود سرديات بديلة. ويمكن تصنيف ما تثيره الدراسات في هذا الشأن في فئتين أساسيتين حسب طبيعة المحددات ومداخل التناول كما يلي:

1- المداخل والمحددات السردية: وهي أقرب لمحددات داخلية أو ذاتية لقوة السردية تتصل بطبيعة السرديات ومضمونها وبنائها واتساقها الداخلي وخصائصها، وهو ما تطرحه بعض الدراسات تحت اسم "قواعد السرديات narrative grammar" والتي تشمل عادة وضوح صياغة السرديات والواقعية والقابلية للتصديق (المرتبطة باتساقها مع بعض المشاهدات الواقعية وليس بالضرورة الصدق الكامل)، ووضوح أفق النجاح والتقدم أو النصر بما يكفل الدعم السياسي والشعبي للسردية، مع موازنة ذلك بتجنب النزعات المباشرة الزائدة، و عدم الإغراق في تفاصيل المهام والأهداف الفرعية، واستبقاء بعض ابعاد الغموض التي تسمح بإضفاء طابع درامي ومرونة كافية لتوظيف السرديات لخدمة استراتيجيات مختلفة، أي الحفاظ على سمة "الحبكة" القصصية (وهو ما يظهر في تفوق سردية الحرب الباردة أو مكافحة الإرهاب على السرديات المثالية حول التعاون الدولي في إطار انتشار القوة)[3].

ومن القواعد الأساسية الأخرى التكامل والاتساق الذاتي بين مستويات السردية المختلفة والتوافق الداخلي حولها، كالاتساق بين سرديات الهوية والنظام العالمي وسرديات الأقاليم والقضايا والسياسات. وتزداد صعوبة تحقيق هذا الاتساق في حالات الانقسام الداخلي وغياب التوافق بين النخب والجماعات داخل الدولة، وكذلك على ضوء تعقد البيئة الإعلامية وتعدد الجماهير المخاطبة داخليا وخارجيا (كتأطير الغرب كعدو متآمر داخليا وكحليف خارجيا، أو تأطير دول لخليج كفاعل تابع قابل للابتزاز المالي داخليا وكحليف مهم خارجيا)[4].

---

[1] J.Biersack and S.O'Lear, 'The geopolitics of Russia's annexation of Crimea: Narratives, identity, silences, and energy', *Eurasian Geography and Economics 55*, no. 3 (2014): pp. 247–269.

[2] للاطلاع على نماذج أخرى لتصنيفات السرديات ومستوياتها حسب المدى الزمني أو الحبكة أو المنطق الإقناعي وغيرها، انظر: علي جلال معوض، *مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية* (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، مركز الدراسات الاستراتيجية ، 2019) ص ص 130-154.

[3] Lawrence Freedman,"The possibilities ..", Op.cit,. 16–17; 25.

[4] Alister et al.,"introduction", Op.cit, 8; George Dimitriu and Beatrice de Graaf, 'Fighting the War at Home: Strategic Narratives, Elite Responsiveness, and the Dutch Mission in Afghanistan, 2006-2010', *Foreign Policy Anal 22*, no. 2 (2014): 5-6

وطرحت بعض الدراسات قواعد أخرى مثل ضرورة تلاؤم السرديات الاستراتيجية مع قيم الجماهير المستهدفة وتوافقها مع ثقافتها وطبيعة الأساطير السياسية والسرديات الكبرى السائدة لديها بالفعل. وفي هذا الصدد، فإن السرديات الموجهة لجمهور يتشارك في ذات اللغة والقيم والثقافة يتوقع أن تواجه معوقات أقل من تلك الموجهة لجماهير أجنبية منتمية لأطر ثقافية مغايرة. كما تذهب بعض التحليلات إلى ارتباط فاعلية السردية بقدرتها على تضمين مصالح الأطراف الأخرى؛ فالسرديات الجيواستراتيجية الأكثر تركيزا على فكرة التشارك في المسؤولية في نطاقات جيوسياسية معينة واستيعاب السرديات الخاصة بالدول والشعوب الأخرى في إطار تفاوضي يؤكد على الاعتماد المتبادل والتعددية القطبية تحظى بفرص أعلى للتمتع بالمصداقية والانتشار والتوافق حولها مقارنة بالسرديات التي تدعي أو تسعى (مباشرة) إلى التحكم في مجال أو نطاق جيوسياسي معين وتقوم على التبعية والأحادية القطبية و/أو الصراع أو تتسم بطابع مصلحي ذاتي ضيق[1].

إلا أن بعض الدراسات تنبه إلى ضرورة التمييز بين انتشار السرديات أو جاذبيتها العامة وعمق التأثير والفاعلية؛ فسرديات مخاطبة الجميع والمعتقدات السائدة التوافقية قد تتسم بالانتشار، إلا أن عمق التأثير أكثر ارتباطا بصياغة سرديات استراتيجية تستهدف معتقدات محددة النطاق (كمخاطبات جماعات محلية معينة تؤمن بتوجهات أيديولوجية بعينها كأحزاب اليمين في أوروبا مثلا) أو ربط السرديات بأساطير ومعتقدات منتشرة وتصادمية (من قبيل معتقدات ادعاء التفوق الحضاري لجماعة بعينها وتبرير استخدام القوة ضد الآخرين، كسردية داعش مثلا في تأكيدها على حلم استعادة قوة الخلافة في مواجهة النظم الغربية وأعوانها). ووفقا لذات المنطق، فإن فاعلية استراتيجيات مواجهة السرديات الخطرة أو المهددة لأمن الفاعل تقتضي تركيز الجهود على محاولات استهداف جماعات بعينها، أو معالجة المعتقدات ذات الطابع التصادمي[2].

كما تشمل القواعد الأخرى ضرورة تمتع السرديات بالشرعية بأبعادها سواء الموضوعية القانونية والإجرائية أو الذاتية السياسية والقيمية والأخلاقية والشعبية، وهيمنة السردية كسردية أساسية أو سائدة مقاسة بغياب أو ضعف السرديات المضادة. فعلى سبيل المثال، فإن سرديات مجموعة البريكس (وكذلك السرديات الصينية والروسية ونحوها) القائمة على تقديم نموذج بديل للتنمية الاقتصادية والتعاون الاقتصادي واحترام السيادة تتأثر سلبا بالسرديات المضادة المثارة إعلاميا وبفعل المشاهدات الواقعية حول التعثر الاقتصادي في بعض دولها، واختلال التكافؤ بين دول المجموعة ذاتها، وفي عوائد مشروعات التعاون المتبادلة (كالتقييمات التي تبرز تفوق الاستفادة الصينية من مشروعات طريق الحرير الجديد والاستثمارات في أفريقيا وغيرها)، وكذلك إقدام بعض دول المجموعة على تصرفات تثير الجدل حول مدى احترامها مبادئ السيادة وعدم التدخل التي تنادي بها مثل التدخلات الروسية في جورجيا وأوكرانيا، وذلك رغم السرديات الروسية المبررة[3].

وفيما يتعلق باستمرارية السرديات وتغيرها، فإن المدخل السردي يركز بشكل أساسي عناصر القوة والضعف الداخلية في السرديات وأهمها مدى اتساقها الذاتي ومدى قوة السرديات المضادة، بحيث تكون السرديات بهذا المعنى أقرب في الواقع إلى "العقائد الجيواستراتيجية الجامدة geostrategic dogma" حيث لا تعتمد على طرح مقولات وفروض قابلة للاختبار أو التحقق من صحتها أو تفنيدها علميا بقدر اعتمادها على مقولات وأنساق

[1] James Pamment, 'Strategic narratives in US public diplomacy: A critical geopolitics', *Popular Communication* 12, 1 (2014), 59-61

[2] Olivier Schmitt, 'When are strategic narratives effective?..",Op.cit,487–511.

[3] Carolijn van Noort, 'Study of Strategic Narratives: The Case of BRICS', *Politics and Governance, 5*, no. 3 (2017): 125-126.

وأجزاء مترابطة تدعم بعضها البعض داخليا بشكل ذاتي، بما يجعل من المستحيل تقريبا بحث مدى صحة المقولات الناتجة عن هذه الأنساق، مع ادعائها غالبا العلمية سواء في الدعوة للانعزالية أو النشاط في دوائر معينة أو الارتباط بأطراف معينة أو مواجهتها، وافتراض أن السياسات التي يوجهها التحليل الجيواستراتيجي هي "السياسات الصائبة"، وهو ما يفرض نوعا من الجمود على السياسات ويصعب مراجعتها في بعض الأحيان، إذ يتم التعامل مع أي مشكلات باعتبارها مؤقتة لا تتعارض مع صحة التفكير الجيواستراتيجي على المدى الطويل[1]. ولا يمنع ذلك إمكانية حدوث التغيير وتحول السرديات في حالات ضعف البنية الداخلية وتزايد التعارض الداخلي في السرديات نتيجة تراكم محاولات إعادة تكييفها، أو زيادة طرح سرديات مضادة بما يضعف السردية السائدة.

2-المداخل والمحددات التفاعلية والسياقية: تتصل بخصائص الفاعلين المرسلين والمستقبلين، وطبيعة السياق، بحيث يتم تسكين السردية ضمن إطار استراتيجي أوسع للحركة والحوار وبناء العلاقات وشبكات التواصل وعدم الاكتفاء بصياغة الرسائل وإعلانها فقط[2]. وتشمل هذه المحددات بالإضافة إلى مراعاة سمات الجماهير المخاطبة وتعددها، الوعي بتعقيد البيئة الإعلامية وإدراك عدم سيطرة الحكومات على جميع الروايات ومشاركة فاعلين آخرين في إنتاج وترويج الروايات لاسيما مع التغير الحادث في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات.

كما تتأثر فاعلية السرديات وتأثيرها بسمات الفاعل صاحب السردية. وإضافة إلى سمات المصداقية وتوافر مقومات وموارد القوة الأخلاقية والمعيارية ونحوها، لا تغفل الدراسات أهمية توافر عناصر القوة الصلبة لدى الفاعل: فمكانة الفاعل كقوة كبرى (أو حتى متوسطة) مثلا تكفل في حد ذاتها زيادة الاهتمام بما يطرحه من سرديات، مع تطلع الفاعلين الآخرين للتماهي مع هذه القوة أو السعي لموازنة أدوارها. كما يساعد توافر مقومات وأدوات القوة المادية والمؤسسية وشبكات التحالفات في إتاحة وكلاء وقنوات وآليات أكثر تنوعا في إنتاج السرديات وتطويرها ونشرها عبر وسائل الإعلام التقليدية والحديثة ومراكز الأبحاث ومختلف صور المنتجات الثقافية العليا النخبوية (كالتعليم والبحث العلمي وغيرها) والشعبية الجماهيرية (كالأفلام والمسلسلات) وغيرها. هذا فضلا عن التحكم بشكل أكبر في المعلومات والوقائع المتوفرة عن القضايا المختلفة والحد نسبيا من زخم السرديات المضادة. ولا يعني ذلك تمتع سرديات القوى الكبرى بالضرورة بشكل تلقائي بالفاعلية والتأثير أو الحصانة لكن المقصود هو المزايا النسبية مقارنة بالفاعلين الآخرين[3].

وفيما يتصل بمحددات تغير السرديات والتحول عنها إلى سرديات جديدة، يطرح المدخل السياقي التفاعلي تفسيرات متعددة، من بينها تغيرات الهياكل المادية للقوة الدولية والإقليمية (بما يتسق مع مقولات الواقعية الهيكلية خاصة)، أو تغيرات القيادات والنخب الحاكمة وتوجهات نظم الحكم والمؤسسات الداخلية والإقليمية والدولية أو نتاج لتراكم عمليات تعلم متراكمة تفضي إلى مراجعة السرديات القائمة (بما يتفق مع مقولات الليبرالية المؤسسية). واتساقا مع ما سبق فإن ثمة افتراض سائد بأن مناسبات فشل الاستراتيجيات أو إخفاقها، وهو ما تتجلى ذروته في الهزائم العسكرية، يمثل إحدى اللحظات الأساسية الأعلى احتمالا لتحول السرديات. إلا أن ثمة دراسات

---

[1] Pinar Bilgin, 'Turkey's 'geopolitics dogma'', in Stefano Guzzini (ed.), *The Return of Geopolitics in Europe? Social Mechanisms and Foreign Policy Identity Crises* (Cambridge University Press, Cambridge, 2012), 152-4..

[2] G. Dimitriu and B. de Graaf, Op.cit, 6-7.

[3] A. Miskimmon et al,"Great power politics", Op.cit,. 60–77

خلصت إلى تعميمات مغايرة، حيث ظهر أن الهزائم العسكرية والأزمات تقيد فرص التغيير أو مراجعة السرديات السائدة؛ بل على العكس قد توفر سياقا أكثر ملاءمة لترسيخها، حيث تتقيد قدرة المعارضين على رفض السردية الأساسية وتقتصر انتقاداتهم عادة على أبعاد جزئية خوفا من الاتهام بالخيانة والانحياز للأعداء وتقويض الروح المعنوية أو المساهمة في الهزيمة. وفي المقابل يميل أنصار السردية القائمة وكذلك الصقور من المعارضة إلى تبرير الأزمة والإخفاق بعدم التمسك بشكل كاف بالسردية السائدة، وضرورة زيادة تكريس الموارد العسكرية والاقتصادية وبناء شبكات التحالفات وغيرها بما يخدم تحقيق هذه السردية. وبذات المنطق، فإن النصر العسكري أو المكاسب المتحققة نتيجة سياسات دبلوماسية أو اقتصادية تمثل هيكل فرص أكثر ملاءمة لإحداث تغيير في السردية السائدة سواء من قبل معارضيها أو انطلاقا من إمكانية تطويرها وتبني سردية جديدة لتعظيم المكاسب[1]. وتثير مثل هذه الدراسات التساؤل حول مدى إمكانية الاعتماد على انتشار السرديات والتوافق الداخلي حولها وخفوت السرديات المعارضة كمؤشرات على فاعلية السردية وقوتها، إذ قد تكون مؤشرات مضللة تخفي إخفاقها.

خاتمة

ثمة زخم في الدراسات التي توظف مفهوم السرديات في تحليل العلاقات الدولية في مسعى لتعميق الأبعاد النظرية للمفهوم وتصنيفاته وتحليل محددات فاعليته، وهو ما استعرضت الورقة بعض جوانبه. ودون إنكار أهمية المفهوم سواء في إضفاء الشرعية وتهيئة المسرح لاستخدام القوة الصلبة أو في تشكيل الواقع ذاته أو تزييفه، إلا أن بساطة مفهوم السرديات وانتشار استخدامه دون توافق واضح حول عناصره قد يغذي الاعتقاد بصلاحيته للتوظيف السياسي في مختلف المجالات، بما يولد توقعات غير واقعية بخصوص ما يمكن تحقيقه اعتمادا على السرديات بمفردها[2]. وإذا كانت احتمالات النجاح تنخفض حال عدم صياغة سرديات ملائمة تخدم استراتيجية معينة، فإن ذلك لا يعني بحال الاعتقاد بإمكانية الاعتماد على السرديات "الصحيحة" كبديل كامل يغني عن وجود استراتيجية سليمة أو توافر القدرات المادية الصلبة. كما أن جاذبية توظيف السرديات وما تتضمنه من استعارات وتشبيهات لا ينبغي أن يغفل مخاطرها في اختزال تعقيدات الواقع أو تكريس مقارنات وقياسات غير دقيقة بشكل قد يعرقل تطوير استراتيجيات أكثر تكاملا وتحوطا للاحتمالات المختلفة. كذلك يلفت بعض رواد التحليل الجيواستراتيجي النقدي أنفسهم ضرورة تجنب الإغراق الزائد في التحليل النصي للسرديات خاصة أن الخطابات التي تطرحها القيادات والنخب الرسمية في بعض الاحيان قد تختلف عن الممارسات الجيوسياسية الفعلية[3]. هذه الاعتبارات جميعا لا تنفي أهمية التحليل السردي لكنها تؤكد ضرورة إدراك طابعه الجزئي، وأهمية تكامله مع المداخل التحليلية الأخرى لعلاقات القوى. وعلى المستوى النظري الأكاديمي، فإن تطوير مفهوم السرديات الاستراتيجية يقتضي ربطه بالمفاهيم والمجالات ذات الصلة الأسبق عليه مثل الدعاية والاتصال السياسي والقوة الناعمة والجغرافيا السياسية النقدية وغيرها، وذلك لتجنب إعادة اختراع العجلة، وتعظيم الاستفادة الفعلية من بعض الأبعاد الجديدة التي يمكن أن يقدمها المفهوم في تحليل تفاعلات القوة في العلاقات الدولية.

---

[1] Ronald R. Krebs, 'How Dominant Narratives Rise and Fall: Military Conflict, Politics, and the Cold War Consensus', *International Organization 69*, no. 4 (2015): pp. 809–845.

[2] L.Freedman, 'The possibilities ..",Op.cit., 20-21.

[3] Mathew Coleman, "Intellectuals of Statecaft", in : Klaus Dodds et al(eds.), *Op.cit,* 497.